

طائر الفينكس

ابطورة الحياة المتنى

بقلم معايل فنبر

لعل أصعب ما يلافي التفكير هو الفصل بين حقيقة الحياة ووفتها . غير أن أكثر الناس لا يفكرون بذلك ، بل يتذدون لحظة في أقامة المحدود بين ما يدعونه حقيقة وما يرونه أن يدمغوه بحقيقة الوهم أو الخرافات . هكذا فالقرب في نظرهم حقيقة ، أما الفينكس خرافات لا يؤمن بها إلا البسطاء والقدماء لأنها ذليزجتني من شاء بين القدماء والبساطاء لأنني اؤمن بالفينكس . وإنما اؤمن بالفينكس لأنني أؤمن بالطيال الذي ابتدعه . أو ليس الطيال حقيقة ؟ إذن كل ما يحمل به الطيال وبمهده وينفذه ، سواء كان أجمل الجليل أو أفعى القبح ، يذكر في حقيقة الطيال . ولنحن فو نظرنا في الطيال الذي يعلم بغير اقطاع لوجودنا أن ما دون الترعر من أعماله يستخدم بكلام حمسوا ، فلربما يضيقنا بهذا الترعر وهذه حقيقة ، وبنفسنا ما يعي كالوكان وهو أو غير حقيقة ، لكن الطيال ذاته خرافات والأنسان نفسه أسطورة لأن خيالاً يلد طائراً كالفينكس طيال مبدع في ذاته ومن ذاته . الأنسان خلق الفينكس ، وللأنسان الحق أن ينظر إلى ما خلقه ويقول : « هو حسن جداً » على أنني أضيف إلى ذلك ، حتى وإن رماني البعض بالتجديف ، إن الله تفهم ، فـ « إنما فكر بطار كهذا الطائر ، تخلق واحداً منه . وقد يكترون أن خيال الأنسان ينعم خيال خالقه . أو لم يضع الله الأنسان على صورته ومتناه؟ »

من روایات هذه الأسطورة الكثيرة الروایات أن التینک يمكن الجزرة البرية . فتعال نقلت من نطاق الجدران والمقوف ومبرب بالطيال إلى قلب في مجاهل تلك الشقة من الجزرة التي دعماها الأقدمون « البرية الحميدة » والتي نعرفها اليوم باسم العين . لعلنا نظرنا على التینک في موته هرذا الشمس قد ارتفعت في الشرق . السماء صافية زرقاء ، ونسمات العصج العليلة تهادي بين الأشجار مدفوعة برأفتها التعدية . في النافذة تهر وسريع عميق يسر بمجلال نحو البحر حاملًا على صفحاته الصافية خيلات الأشجار والأدغال المتعاقنة عن جانبيه . كيئها النفت لا ترى إلا جالاً وسلاماً . حتى إنك لن تحبك في جنة من جنان الفردوس . غير أن الأشجار تخذرك من الانخداع بالظواهر . فهي تعرف أن فيها وعليها وخواياها قد اشتراك الموت والحياة في صراع عنيف . كل سا في النافذة من مخلوقات فتشي ، ومخلوقات تدب أو تزحف ، ومخلوقات غنطي الهواء وتهزه بالأذاريد ، يدب في بلا اقطاع طالباً فوتاً لنفسه أو مطلوباً ليكون فوتاً لسواء . ولا مبرب من ذلك الداردور حتى الصخور التي في الغاب . كل ما زيتنت من الأرض تبتلع الأرض رويداً رويداً لتعود فتلقطه حيوانات

وطيرها وزحافت وحشرات واسعات واعشاب وازهاراً ، ملخية منها ، شائعاً في كل المسكونة ، تستعمل كملحقة موسى من غير ان تخترق في رأس اعلى شجرة في الغاب فد جم طائر لا شيء له في كل الخليقة . وقد اتجه نحو النس فبات كل ريشة من صدره القرمزى اشاعم كما لو كانت تتنهب بناء من طلاء آخر . وكل ريشة من جناحيه الذهبيين ، المغمسة اطراها في ذرقة ولا درقة السماء ، كما لو كانت تخدع شروداً من شرر الشريا . عنقه الطويل البديع ، المطرق في الوسط بطريق ناصع اليابس ، فقد تقوس ان الامام . اماماً منه الدقيق العتم فقد ارتدى قليلاً الى الوراء مسدداً منقاره الطويل الحاد نحو النس . لقد جمع هذا الطائر بين زخرفة الطاووس دون خيلائه وجمال طائر التفروض دون خجله . هو ينظر بطرنيته الى الشرق كأنه لا يشعر بوجود شيء في العالم سوى النس — مصدر التور والحياة . ترق من حواليه طيور كثيرة ، بين كبيرة وصغيرة ، واذ تعرّبه تخفض اجنحتها مسمة عليه سلام انجذاب واحترام . حتى اذ القوي من التراش الذي يتسكن من الصعود الى يوسف حواله مرئين او ثلاثة ثم يهبط الى الارض شاكراً جدلاً

القاب تعج بالاصوات من طائر ينادي عنده ، او وحش ينادي رفيقه الا هذه الطائر الغريب — فهو لا ينادي احداً ولا احد يناديه . اذا لا عنبر ولا دينيق له لا في مشارق الارض ولا في مغاربها ، ولا في طلاء آخر من العالم الدائرة في القضاء . سواء من الطيور منهك في بناء اعشاش او تربية فراخ . اما هو فلا يقتات بشيء حي بل بالبغور والمعطر . سواء من الطيور يضع فرقاً وقد عانى بمخالب مدوة ، اما هو فلا يعرف المظروف لانه لا يؤذيه عذوقاً فلا يؤذيه عذوق . لا ولا تؤذيه العناصر . هو وحيد في العالم كله . لكنه لا وحدة في قنه ولا وحشة . سواء من الطيور يبدل ريشة مرة في كل سنة . اما هو فلم يبدل ريشة واحدة منذ كان له من العمر يوم واحد . وذاك منذ خمسة مائة سنة ! لقد بنيت في القاب اشجار كثيرة فنمت حتى طاولت السحب . ثم هرمت وتفشت واحتلت مكانها لأشجار اخرى . ولقد جرفت التصويب المسرعة اجيالاً لا تحمدى من الطيور والاحشرات والطيور ايات نعم جاءت بغيرها تحصل عليها . ووراء حدود القاب : في مملكة البشر ، قد طفت موجة فوق موجة من اهل الناس ثم تكسرت وتعمرت على شرامى الزمان الذي لا بداية له ولا نهاية . ايم بكمالها اطلت على الحياة ثم توارت ، فكانوا لهم تكين . ومدن عديدة شاخت باراجها وقبتها الى السماء فلم تلبث ان ماقت التراب . ممالك علت ثم انخفضت . غزارة ومتزوون . ابطال وانذال . مأشقون ومضطهدون . روؤس متوجة ورؤوس بلا تبعان — كل هؤلاء متروا على الارض فترة من الزمن ثم عادت الارض فاحتضنهم ليشي فنوقهم . سواء من ابناء الارض . حيث كانت تذكر اهاد جباره بنت اليوم اشراك واحساله وبين العمل فراء والجزادين جحورها . كمن جنان غباء ابتلعها الصحراء ، وكم من صراء أورقت وازهرت ! كم الله انزل عن عرشه والاه اجلس على عرش ! كل ما في الكون قد تغير وتحول في خلال خمسة

فروع الآلة الطائر الذي في عينيه - كما في عيني بعمره - «الفترة كيور امس انغار وكوجهة من النيل» غير ان الوقت قد ازف حتى للعينك ان «يتغير». لا صوت يهمس في اذنيه . لا اصبع تدلله كيف يتجه ولا قوة خارجية تأمره ان يفعل ما هو مازم ان يفعله . لكنه بدلبل من نفسه ، وبصوت من داخنه يذر وجهه نحو الشمال الغربي ، وبعد ان يشقق مجناحه ثلاثة ، يعطي الطواف ، ولا حرج في قبه على اساه حنافون يذكرها وراءه . ولا خوف من اشواه خطيرة اخرى يقابلها . وهو يعرف محنته كل المعرفة في وادي النيل البعيد مدينة كان المقربون يدعونها «آتو» واليهود «بيت شى» او الروم «هليوبولس» وفي تلك المدينة هيكل مكرس لعبادة الله «رام». العينكس يعرف المدينة والمبكك ، ويعرف النسمة على المذبح التي سيستقر عليها . لأنها منذ اجيال لا تُحصى يقصد جامعت هذه مرّة في كل خمسة عشرة سنة ليقتل عليها الموت . ومرة في كل خمسة عشرة سنة يعود منها طاركاً الموت في حربه وارتباك يشق العينكس الطرق مجناحيه القويين سرعاً نحو وادي النيل . فتجتمع من حوله شتى الطيور لترافقه ولو بمعن المسافة وتتظر له تحملها واحترامها . ولا يزال يطوي المسافات الى ان تبدو لعيشه هليوبولس في هيكل رام ناقدة فوق المذبح تنظر منها الشمس فتشتريج اشعها بدخان البخور وتسفر منه ذوات من ذهب وفضة كأنها انسان ارواح قلتها . وهذه الذوات تلتقي وتتعلق فوق المذبح كما ياخبر طاندودة على میوال حتى ويدعوه غورك منها السجنة الغربية . ليس في الهيكل الا واسع المظلوم سوى كاهن عبور زفارق في تأملاته يسمع الكاهن خلاة حفيظ اجنحة بقطيع عليه عجري تأملاته . واذ يرفع عينيه يرى على المذبح طاركاً يقتتل بنور الشمس ، وقط لم تقع عيناه على اجل منه . فتأخذه الدعشه لاول وهلة . ولا تلبث دعشه ان تقلب الى رعبة اذ يحدق في الطار على المذبح قيراً قد اتعجب رائعاً جناحه الى فرق ، ثم يرمه يصدق بها تمنيتها حاداً . وما هي الا لحة طرف حتى يتلبب الجنحان فيظهر ان كأنهما مروحتان من نار . فيندمج الطار باشعة الشمس حتى يشكل على الكاهن ان يترقب بينهما . وما هي الا لحة اخرى حتى يرتفع الجنحان الى فوق ، وقد كفأ عن التصفيق ، فتندو كل ريشة فيها كأنها مصال نار حية . يكاد الكاهن لا يصدق عليه من شدة دعشه . خفيت وآتى منذ لحظة طاركاً حياً يعبر الان السنة من طلب ثقب الى فوق . وبالله من طيب مدحش لم يتحقق له ان أبصر مثله في كل حيائه . هو طبيب يرند البصر كلياً عن بهاته ، وتنكر الانفاس بعطره . الا نبارك راعي الازل الا بددي الذي يحبني نفسه ويعي كل شيء .

يلاً لله الهيكل باشباح مريرة ، كلها يثبت الى فوق ويتألش في وثناته . ورويداً رويداً تحمد النار نار كتحفة من الرماد المتروج بالخمارة اذ يهلك طاركاً بدليع كهذا الطار ، وان يتلاشى في هيبة من الجمعة كهذه الهيئة اولكن . . . أحتنا انه قد هلك ! يترك الكاهن عينيه ليتأكّد انه ليس في منام . فieri - وبالعجبية ! - طاركاً يخرج من كومة الرماد المتروج ، كاملًا بكل تفاصيله ، عجباً بجهله كالطازر الذي التهمته النار منذ لحظة . فيحيط الكاهن على ركبتيه ، وينطلي عليه يديه ، وينهي رأسه الایض حتى يلامس الارض ويستنم كلمات يكاد لايسما :

هيا راع ! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاتي حبه . ايه ، المعلم الاطهي يا وريث الابدية . يا والد نفسه . يا امير الاوتجاه السفلي ومدير الاحياء العني . يا الله الحية يا رب الحمد . كل نسمة تحيا بدماءك »

ان خيالاً جريشاً وحصباً ، اذ لم أُعْنِيهِ مثلاً كتاب الفينكس . تعمق فيه ووشى حروابه الى ما لا نهاية له . فالقدمة مع هافتتهم على الفينكس . كطاوؤ يحيى فرداً ومجدد ذاته بذلك ، قد ابتدعوا اساطير مختلفة لموته وللمدة التي يعيشها بين التجدد والتجدد . وما الرواية التي حاولت ان اصورها في ماسبق الاً واحدة من تلك الروايات الكثيرة التي ضاع مصدرها في زمان قفارا كان يحمل بالاسمه والتواريخ لانه كان بهم قبل كل شيء بمحفظات الحياة الثالثة او بالفكرة الابدية

لالخلاف على ان اسم الفينكس يعني . والكلمة تعني ؟ في بعض معانيها الكثيرة نوعاً من التخيل ولعل اليونان عرفوا ذلك النوع من التخيل في بلاد فينيقية اولاً فأسموه باسم البلاد . او اسموا فينيقية باسم ذلك النوع من التخيل لانه كان يكثر فيها . وقد يكون انهم اطلقوا اسم الفينكس على ذلك الطائر المخراقي لأنهم اخذوا الاسطورة عن الفينقيين ، وفي الفقرة الآتية من شيد بولاق للآل راع ما يدعم النظر بان اسم الفينكس مأخوذ من فينيقية

« الجد » في الميكل عند ما يهض من بيت النار . الـ « الـ طـ » كـ هـ تـ حـ بـ اـ رـ جـ هـ عـ دـ مـ يـ قـ تـ بـ مـ بـ لـ اـ لـ دـ عـ رـ بـ . هو رب الندى عند ما يأتى من مآمان . هـ هو يقترب بجمـالـه الـ لـامـعـ منـ فـينـيقـيـةـ مـحـاطـاـ بـ الـ طـ » اـ ذـ يـكـنـ اـ صـلـ اـسـمـ فـيـ شـكـ فـأـصـلـ طـائـرـ ذـاهـبـ اـكـثـرـ تـعـدـاـ مـنـ اـسـمـ . فـقـدـ يـكـوـنـ فـينـيقـيـاـ . وـقـدـ يـكـوـنـ مـصـرـيـاـ . وـاقـرـبـ شـيـهـ لـهـ فـيـ الـ آـنـارـ الـ كـتـابـيـةـ الـ قـدـيـعـةـ مـجـدـهـ فـيـ ذـكـ السـفـرـ الـ مـصـرـيـ الـ غـرـبـ الـ مـعـرـوفـ بـ كـتـابـ الـ اـمـوـاتـ . وـهـوـ بـحـمـوـةـ فـصـولـ شـائـتـةـ فـيـ الـ عـلـمـ الـ بـاطـنـيـ وـالـ قـلـنـةـ وـالـ شـمـرـ وـالـ سـحـرـ يـرـجـعـ بـعـضـهاـ إـلـىـ الـ قـرـنـ الـ أـرـبـعـينـ قـبـلـ التـارـيـخـ الـ مـيـعـيـ . وـلـعـلـ هـذـهـ الـ حـسـوـةـ هـيـ اـفـنـ ماـ وـرـثـنـاهـ عـنـ سـكـانـ وـادـيـ النـيلـ الـ اـنـدـمـينـ . فـهـيـ مـنـ اوـلـهاـ مـاـ اـخـرـهاـ تـبـعـسـ بـاـعـانـ الـ مـعـزـينـ الـ قـلـعـاءـ بـلـطـلـوـدـ . فـلـوـتـ عـنـدـمـ لـمـ يـكـنـ الـ سـيـاحـ بـيـنـ طـائـنـ اوـ اـنـتـقـالـاـ مـنـ شـامـيـهـ الـ حـيـاةـ الـ اـدـافـيـ الـ شـامـيـاـ الـ اـقـمـيـ . وـلـمـ كـانـ حـكـمـهـ كـانـ يـدرـكـوـ اـعـلـيـهـ اـنـ يـدـرـكـوـ الـ حـلـ مـاـ هـوـ اـبـعـدـ مـنـ الـ حـلـ . وـكـانـ اـحـدـ رـمـوزـ هـمـ طـائـرـاـ مـنـ نـوـعـ الغـرـفـوـقـ اوـ مـاـلـكـ الـ حـزـنـ . وـكـانـ يـدـعـونـهـ « بـنـوـ » وـاـسـمـ مـشـقـ مـنـ كـلـةـ تـعـنـيـ الـ رـجـوعـ . وـهـذـاـ الطـائـرـ كـانـ يـتـشـلـ فـيـ اـسـاطـيرـهـ وـفـيـ رـأـسـهـ رـيـشـتـانـ مـنـعـيـتـانـ الـ خـلـفـ . مـنـ يـطـالـعـ « كـتـابـ الـ اـمـوـاتـ » يـرـىـ اـنـ هـذـاـ الطـائـرـ كـانـ يـرـزـقـ اـلـ رـاعـ — الـ اـلـهـ الـ الـيـ وـلـدـ قـهـ مـنـ نـفـسـهـ ، وـالـ الـيـ لـاـ يـعـرـفـ الـ مـوـتـ — الـ نـهـارـ الـ بـنـيقـ . وـالـ نـورـ الـ تـقـلـبـ اـبـداـ عـلـىـ الـ قـلـمـةـ . فـنـ هـذـاـ الـ قـبـيلـ ، وـكـذـلـكـ مـنـ حـبـتـ الـ سـلـيـئـةـ وـبـيـنـ هـنـبـوـلـسـ ، تـرـىـ اـنـ طـائـرـ « بـنـوـ » يـشـتـركـ فـيـ بـعـضـ خـصـائـصـ الـ فـينـكسـ . غـيـرـ اـنـ لـيـسـ مـذـكـورـاـ فـيـ كـتـابـ الـ اـمـوـاتـ اوـ فـيـ كـتـابـ اـخـرـ كـطـائـرـ يـوتـ بـالـ نـارـ كـلـ خـيـانـةـ سـنةـ اوـ اـكـثـرـ ثـمـ يـهـضـ مـتـجـدـداـ مـنـ رـمـادـهـ

الآن كاهاً مصرىً اسمه هورابولتو، عاش في القرن السادس قبل الميلاد، جعل سلة متيبة بين البنو والفينكس. ففي ترجمة كتاباته اليونانية التي وصلت إلينا تسمى به يتكلّم عن طائر معروف عند المصريين وفي تقاليدهم يُجدد نفسه بنفسه. وأسمه في الترجمة اليونانية «فينكس». وبعد أن يتكلّم هورابولتو عن ظهور هذا الطائر مرة في كل خمسة عشر سنة يصف موته هكذا: -

«عندما يشعر الفينكس بدفون أحشه يطرح نفسه بعنف على الأرض فينخرج ويُسْلِل دمه، ومن ذبه التجدد بولدفينكس آخر، وهذا حالياً يكتسي بالريش يطير بوالده إلى هليوبولس، فإذا بلغها يعود إلى الدار عند شروق الشمس، فيحرقه الكتبة المصريون، أما الفينكس لمزيد فينطلق إلى بلاده» من بعد هورابولتو اخذت حكاية الفينكس تنتشر وزيادة شهرة في الغرب إلى حد أنها استمرت أثباتاً أكبر المؤرخين والشعراء واللاهوتيين القدماء، ومهم هيرودوتوس، في ميقاته لزيارة قام بها في مصر، يتكلّم عن الفينكس كالمكان طائراً عربضاً. ثم يضيف متحفظاً: «اما أنا فلم ابصره الا في الصور» - لكن الشاعر اوقيد لا ينحني فقط في وصفه، فهو يتكلّم عن الفينكس كثار يُجدد ذاته ويتنفس بالعطور لا غير . ويقول أنه بعد أن يعيش خمسة عشر سنة يعني لذاته شيئاً من القرفة والتاردين والمر في رأسه خصلة . وفي ذلك العذر يلقط آخر انفاسه . ومن جنته بولدفينكس جديد . وهذا، عند ما تكتمل قواه، ينتهي المش من الشجرة - وهو مهدى ولد آيه - ويطير به إلى هليوبولس في مصر حيث يضمها هيكل الشمس، وأكثر جرأة من الشاعر اوقيد المؤرخ طانيبيوس الذي لا يتردد في ذكر ظهور الفينكس كحدث توخيدي في زمان القنصل بولس فايروس (سنة ٣٠) كذلك درجت حكاية الفينكس على ألسنة القدماء وأقلام كتابتهم وشعرائهم . وكان آباء الكنيسة المسيحية أكثر الناس اقبالاً عليها، فقد أخذوها امثال تروليانوس وكلينتس وايفانوس وسراجون ورمزاً لقيامه المسيح من الموت . أما روفينوس فقد وجد فيها حاجة لا تتحقق على ولادة المسيح من عذراء إذ قال: «ما بالنا نستغرب أن تحمل العذراء وتلد ومن المثبت أن الطائر الشرقي المعروف باسم الفينكس يولداً ذاهباً غير ذكر ومحباً ابداً وحيداً ولا رفيقاً له من جنه . وأبداً يختلف نفسه بنفسه؟» من أقدم الآثار الكنسية التي فيها ذكر للفينكس كتاب «الفيزيولوغوس» الإسكندرى، وهو مجموعة حكايات وثنية عن الحيوانات والطيور استخلاص منها جامعواها مراجعه وارشادات وحججاً دينية . وقد ورد فيها أن الفينكس طائر هندي لا يتعذر بشيء إلا الهواء . ومرة في كل خمسة عشر يقصد هليوبولس حاملاً على جناحه أنواع الطيب . وهناك يحرق نفسه على منبر الميكل . فتخرج من رماده دودة تحول بعد ثلاثة أيام إلى فينكس كامل . وهذا الفينكس يحيي الكافن ثم يطير إلى بلاده . وتنتهي الحكاية بالموعدة الآتية: -

«يا له من رمز كرامة ألا لارشد الناس . فالله، خالق السموات والآسماء، قد يَئِن لنا بما مثبتته . المسيح كالفينكس، جاء بعد فرون عديدة حاملاً طير الحياة وأخذ طبعة بشرية . ومثلاً يُعيد الفينكس لمنه على المذبح في مدينة الشمس المصرية؛ مكداً رفع المسيح صليه باراده

على الخليقة في مدينة نورشليم . ومتنا يتناثي النبيك عى خبره وبمرق نفسه حتى الموت ، هكذا تُقتل المسيح للموت وانتصـل روحـه عن جــده . وكــا ان الدودـة المــلودـة من رــمــدــ النبيــكــ تــحــرــلــ بــســدــ ثــلــاثــةــ لــيــامــ إــلــىــ طــاـرــ كــاملــ ، هــكــداـ اللهــ اـنــكــهــ اـقــمــ جــدــهــ فــيــ الــيــوــمــ اـنــثــالــثــ . وكــاـ انــ النبيــكــ يــســتــكــلــ قــوــاءــ وــشــكــلــهــ فــيــ الــيــوــمــ اـنــثــالــثــ : كذلك جــمــدــ المــســيــحــ النــاهــيــ منــ التــبــرــســجــعــ اـبــدــيــاـ وــغــيرــ مــتــفــيــرــ . وــمــثــلاـ يــســرــعــ لــلــفــيــكــكــ اـلــىــ الــهــنــدــ - موــطــهــ الــأــوــلــ - هــكــداـ اـخــادــ اـلــمــســيــحــ مــحــمــدــ الــجــدــيدــ اـلــىــ مــوــطــهــ اـلــاـبــدــيــ » . وفي اللاتينية كتاب بدعت Syria مــســدــدــ وــهــ مــحــرــعــةــ حــكــاـيــاتــ ســرــيــاـ وــرــدــتــ فــيــ حــكــاـيــةــ النبيــكــ هــكــداـ « يقولون كذلك انــ فيــ بلــادــ الــهــنــدــ طــاـرــاـ عــظــيــاـ يــانــيــ مرــةــ فــيــ كــلــ خــيــنــ (ــكــداـ)ــ ســنةــ اـلــىــ جــيلــ لــبــانــ . وــهــنــاكــ يــجــمــعــ اـلــبــيــعــ اـلــمــطــوــرــ وــاجــلــ اـلــاـزــهــارــ ثمــ يــمــوــدــ اـلــهــنــدــ . وــعــبــيــثــ يــكــوــنــ فــيــ شــهــرــ بــيــســانــ . فــيــ ذــلــكــ الشــهــرــ يــقــيمــ كــاهــنــ الــنــفــقــةــ مــذــبــحــاـ عــلــ رــأــســ جــيلــ بــيــانــ . وــبــيــنــيــ حــولــ المــذــبــحــ شــهــ بــيــتــ مــنــ اـفــعــانــ الــكــرــمــ فــيــانــيــ الطــاـرــ وــيــدــخــلــ الــبــيــتــ وــيــقــفــ عــلــىــ الذــبــحــ . ثــمــ يــأــخــذــ يــعــنــقــ بــخــنــاحــيــ حــقــيــ يــلــهــيــاـ وــيــلــهــبــ الــبــيــتــ مــعــهــاـ اـلــىــ اـنــ يــســبــعــ الــكــلــ دــمــاـ . وــبــنــدــ اـلــاـلــاتــ اـلــيــامــ يــســمــدــ الــكــاهــنــ اـلــىــ قــةــ الــجــبــلــ وــيــتــعــصــمــ اـلــرــمــادــ وــفــيــهــ يــســجــدــ دــوــدــةــ صــغــيــرــةــ . وــالــدــوــدــهــ هــذــهــ تــكــدــرــ وــتــحــوــلــ اـلــىــ طــاـرــ كــالــنــيــ اـحــتــرــقــ . وــهــذــهــ الطــاـرــ يــســرــدــ مــنــ حــيــثــ اـلــىــ . وــكــاـ انــ هــذــهــ الطــاـرــ اـلــذــيــ يــحــرــقــ فــســهــ ثــمــ يــســجــدــهــاـ فــيــاـمــاـ ، فــاـلــاـحــرــىــ قــوــةــ المــســيــحــ عــلــ اـلــقــةــ جــســدــهــ الــطــاـرــ مــنــ الــقــبــرــ . فــقــاـفــلــ فــيــ الــأــجــيلــ الــمــقــدــســ (ــيــوــحــاـ ۱۰ - ۱۸ــ)ــ : وــهــذــهــ اـلــقــاـمــ اـلــيــقــوــنــ اـلــىــ ســلــطــانــ اـلــىــ آـخــذــهــ اـيــضاـ » . أــلــاـ فــلــذــعــ اـلــىــ الــرــبــ يــســوــعــ بــالــصــرــمــ وــالــعــلــاـ وــالــمــطــوــرــ الــطــيــةــ وــالــاعــهــ الــســالــمــةــ اـلــكــوــنــ اـهــلــاـ لــانــ تــقــتــلــ مــلــكــوــتــ الســوــاـتــ » .

لقد يــقــيــ الــإــعــانــ بــالــنــبــيــكــســ حــيــثــ خــلــالــ حــســرــ التــجــدــ (ــالــإــنــســانــ)ــ . وــبــعــدــ ذــكــرــ اـخــذــ يــتــقــهــرــ مــنــ وــجــهــ «ــالــلــمــ»ــ الــقــيــ الــيــ لــاـ يــؤــمــنــ الــأــ »ــ بــالــبــرــهــانــ الــحــســيــ »ــ . يــقــيــ اـســبــحــ «ــخــرــافــةــ»ــ قــلــ مــنــ يــهــمــ هــاـ »ــ بــوــقــلــ مــنــ يــعــرــفــ عــهــاـ اـكــثــرــ مــنــ اـســهاـ . غــيرــ اـنــ النــبــيــكــســ ماــ اـدــرــجــ فــيــ اـكــفــانــ النــبــيــانــ وــالــاـهــمــ الــاـبــدــ اـلــذــيــ تــرــكــ فــيــ الــعــالــمــ آـثــارــ مــنــ جــاهــهــ لــاـ تــغــيــيــ وــيــنــدــرــ اـنــ تــغــدــ اـمــةــ قــدــيــعــاـ لــمــ تــســبــحــ عــلــ مــثــالــهــ وــلــمــ تــخــلــقــ هــاـ طــاـرــاـ تــرــيــاـ مــنــهــ . قــالــرــبــ فــدــ حــلــقــواـ الــعــقــاءــ وــالــمــنــدــلــ . وــقــارــســ «ــالــســيــمــوــرــغــ»ــ . وــالــمــهــوــدــ «ــظــارــوــحــاـ»ــ وــالــســيــنــيــرــوــنــ «ــفــيــنــ»ــ - «ــهــوــانــ»ــ وــالــيــاـبــاـبــوــنــ «ــهــوــ»ــ - «ــأــوــ»ــ . مــنــ شــاءــ اـلــ يــقــاـبــلــ بــيــنــ دــرــيــ الــرــوــحــيــ فــلــيــقــاـبــلــ بــيــنــ الطــيــورــ الــتــيــ اـبــتــدــعــهــ خــيــاـلــهــ . فــيــ الــقــاـبــلــةــ دــرــســ جــيلــ وــلــدــةــ كــبــرــةــ . اـمــ اـمــاـقــلــ لــقــةــ اـكــبــرــ فــيــ دــرــيــ النــبــيــكــســ . وــقــبــلــ اـنــ اوــدــعــ هــذــهــ الطــاـرــ العــجــبــ اـحــبــ ، اـذــ اـســطــعــتــ ذــكــرــ اـنــ اـهــذــ اـلــســيــرــ فــاعــرــقــعــ اـقــعــدــ مــنــ وــجــوــدــهــ . لــقــلــ اـنــ وــزــرــ . وــلــكــنــ اـلــىــ مــاـذــاـ يــرــزــ ؟ــ الــلــهــ وــلــدــ شــوقــ . الــإــنــســانــ الــثــانــيــ اـلــعــدــمــ فــتــنــاـ ؟ــ اـمــ زــادــ فــتــنــاـ ؟ــ اـنــ جــاـلــ حــاـكــهــ اـلــوــلــمــ لــاـعــنــ قــرــحــهــ اـلــثــانــيــ ؟ــ اـمــ هــوــ رــوــيــاـ ؟ــ وــرــبــ الــاـظــامــ الــلــتــيــ بــيــدــهــ الــآـيــادــ بــطــرــقــةــ عــيــنــ وــيــنــشــ مــنــ خــلــالــ الاـشــكــالــ الــلــتــيــ اـلــ رــوــحــ الــاـشــيــاـ وــجــوــهــ رــهــاـ . اـنــ اـكــثــرــ الــبــاحــثــينــ الــدــيــنــ وــقــتــ هــمــ عــنــ رــأــيــ فــيــ النــبــيــكــســ يــتــخــلــرــ مــنــهــ بــقــوــطــمــ اـذــ اـلــمــصــرــيــنــ الــقــدــمــ اـلــخــنــوــهــ رــمــاـلــلــشــمــ فــيــ شــرــوــفــهاـ وــغــرــوــهــاـ . لــاـنــهــ كــانــواـ يــســبــوــنــ الشــمــ نــخــتــ اـســمــ رــاعــ . وــاـذــ اـنــ

لتختهنة ولأعمالها امتحن لتنسي إن اختلف هذا الرأي دون أن أجد لدى أي سخط بالبعاثين وعذابه للطهاء لا جدل في أن سرور الشعب المصري القديم كان يتخذ الشس الهاله . إنما مؤلفو كتاب الاموات، وشائدو الآخراء، وخالقو إيزيس وأوزيريس وأسرارهم، وصنفو ديموقريطوس وفيثاغوروس وأفلاطون ، وكيف تصدق أنهم كانوا يصدرون جرمًا معنويًا — مهـ هـ ظـمـ ذـلـكـ الجـرمـ وـعـبـ — وـهـ قـدـ وـادـواـ الفـعـاهـ وـأـكـتـقـواـ سـبـيلـ النـجـومـ ؟ بل إنـ الشـمـسـ لمـ تـكـنـ لـاـشـاكـ هـؤـلـاءـ أـكـثـرـ منـ دـمـ حـسـوسـ لـهـ « رـاعـ » — الوـالـدـ نـفـسـهـ مـنـ نـفـسـهـ . المـحـيطـ بـكـلـ شـيـءـ وـلـاـ يـحـيطـ بـهـ شـيـءـ . المـبـعدـ الـأـشـكـالـ وـلـاـ تـكـلـ لـهـ : وـالـخـالـقـ الـبـدـيـاـيـاتـ وـالـنـهـاـيـاتـ وـلـاـ بـدـاـيـةـ لـهـ وـلـاـ نـهـاـيـةـ . وـمـاـ آـلـهـ الـمـصـرـيـنـ ، عـلـىـ وـغـرـبـهـ سـوـىـ صـفـاتـ مـتـنـوـعـةـ لـذـلـكـ إـلـهـ الـوـاحـدـهـ . إنـ مـنـ يـقـرـأـ كـتـابـ الـأـمـوـاتـ ، وـلـوـ قـرـاءـةـ سـطـحـيـةـ ، لـاـ يـسـهـ اـنـ يـقـرـوـنـ خـيـرـ هـذـاـ الـقـوـلـ . وـاـنـ اـجـلـ حـكـمـ الـمـصـرـيـنـ عـنـ جـهـاتـ تـجـهـيلـ مـنـ الشـمـسـ وـمـوـاـتـرـاعـ ؟ ثـمـ تـخـلـقـ الـفـيـتـكـنـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ يـصـرـهـ الـآـنـقـرـ قـلـيلـ مـنـ النـاسـ — وـذـاكـ مـرـةـ فـيـ قـرـونـ مـدـبـدـقـةـ لـتـحـلـهـ دـمـيـاـ لـلـشـمـ الـتـيـ يـرـأـهـاـكـلـ اـنـسانـ فـيـ كـلـ يـوـمـ . اـنـاـ يـرـمـ الـفـيـتـكـنـ إـلـىـ مـاـ هـوـ اـبـدـ وـابـقـ مـنـ الشـمـسـ — إـلـىـ الـحـيـاةـ فـيـ مـظـهـرـهـ كـمـادـةـ وـرـوحـ

فيـ خـواـءـ الـظـواـهـرـ الـتـقـلـيـلـةـ تـرـدـ الـأـنـسانـ إـنـ يـعـزـ يـنـ نـوـعـيـنـ مـنـ التـغـيـيرـ ، وـاـنـ يـدـغـوـ الـأـخـدـ مـوـتـاـ وـالـأـخـرـ حـيـةـ . اـمـاـ الـفـيـتـكـنـ فـكـاـيـ بـهـ يـقـرـلـ إـنـ الـحـيـةـ وـالـمـوـتـ وـاـخـدـ لـاـنـ مـصـفـرـهـاـ وـاـخـدـ ، وـهـ اـرـوـحـ الـمـرـمـوزـ الـبـرـ وـالـنـادـ . فـالـنـادـ اـبـداـ هـيـ هـيـ . تـلـتـيمـ الـأـشـيـاءـ نـمـ تـجـهـهـاـ وـتـكـثـرـهـاـ لـكـنـاـهـاـ لـاـ تـلـتـيمـ وـلـاـ تـنـوـعـ اوـ تـكـثـرـ ذـائـهاـ . هـيـ النـارـ اوـ الـرـوـحـ — تـلـكـ الـحـيـةـ الـأـوـلـيـةـ الـتـيـ يـدـعـمـهـاـ الـعـلـمـ الـمـحـدـيـتـ « قـوـةـ » تـقـلـمـ ذـرـاتـ الـأـشـيـاءـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ اـنـوـاعـهـاـ نـمـ تـتـرـهـاـ . فـهـيـ مـتـفـلـقـةـ فـيـ كـلـ شـيـءـ — فـيـ رـكـمـ الـخـلـيدـ الـطـالـيـ هـلـ وـجـهـ الـيـاهـ مـثـلـاهـ فـيـ الشـمـ . وـفـيـ اـوـنـادـ مـثـلـاهـ فـيـ كـتـلـةـ الـعـمـ الـتـابـيـةـ فـيـ سـدـ الـأـنـسانـ ، وـهـيـ عـنـدـ مـاـ تـلـتـيمـ شـيـئـاـ تـرـدـ إـلـىـ عـنـاصـرـ الـأـصـلـيـةـ . لـكـنـهـاـ لـتـلـاشـيـ ، بـلـ تـمـتـقـنـ مـنـ سـجـنـهـ الـوـقـيـ . وـهـكـذا هـنـمـاـ يـحـرـقـ الـفـيـتـكـنـ شـهـ لـاـ « يـعـوتـ » حـتـىـ لـطـةـ وـاـحـدـةـ . لـاـنـ النـارـ الـتـيـ هـيـ رـوـحـ . تـيـقـ حـيـةـ لـيـ وـمـادـهـ . وـهـيـ الـتـيـ تـمـدـ فـتـجـمـعـ ذـرـاتـ جـسـدهـ مـنـ جـدـيدـ . فـهـوـ ، وـاـنـ يـدـلـ جـسـدهـ مـرـةـ فـيـ كـلـ خـشـبـةـ سـتـةـ ، لـاـ يـدـلـ الـرـوـحـ الـتـيـ لـاـ يـطـرـأـ عـلـيـهـ اـنـقـطـاعـ وـلـاـ تـغـيـيرـ

نـمـ إـنـ النـاسـ يـلـبـاهـوـنـ بـاـ يـعـنـوـهـ « تـقـرـبـ » وـ « تـقـدـمـ » اـمـاـ الـفـيـتـكـنـ فـكـاـيـ بـهـ يـقـرـلـ إـنـ لـيـسـ فـيـ الـمـيـلـةـ غـمـ وـتـقـدـمـ . اـذـاـنـ كـلـ مـاـ يـسـمـوـ بـحـمـلـ فـيـ دـاخـلـهـ جـرـاـيـمـ مـوـتهـ وـاـخـلـاـهـ ، وـكـلـ مـاـ يـعـرـفـ وـيـشـعـلـ لـاـ يـدـوـمـ ، وـكـلـ مـاـ لـاـ يـدـوـمـ لـاـ وـجـودـ اوـ لـاـ حـقـيـقـةـ لـهـ فـيـ ذـائـهـ . بـلـ هـوـ يـتـلـاذـنـ حـقـيـقـةـ . وـجـودـهـ مـنـ الـحـقـيـقـةـ الـوـلـمـحـةـ الـتـيـ هـيـ الـيـومـ مـثـلـاهـ اـمـسـ . وـغـدـاـ مـثـلـاهـ الـيـومـ . فـلـاـ يـطـرـأـ عـلـيـهـ اـقـلـ تـغـيـيرـ اوـ تـبـدـيلـ .. وـهـيـ لـاـ « تـقـرـبـ » اـذـاـ لـاـ شـكـلـ طـاـ وـلـاـ قـيـاسـ ، وـلـاـ جـدـيـاـيـةـ . وـلـاـ نـهـاـيـةـ . وـهـيـ لـاـ « تـقـدـمـ » اـلـاـلـيـسـ فـيـ الـوـجـودـ مـاـ هـوـ خـلـوجـ عـنـهـ اـتـقـدـمـ مـنـ ذـائـهـ الـتـيـ . الـفـيـتـكـنـ يـقـرـلـ إـنـ السـبـيلـ الـأـوـحـدـ لـلـ« تـقـرـبـ » هـوـ بـالـتـقـانـ — بـالـتـجـرـدـ مـنـ الـأـشـكـالـ الـخـارـجـيـةـ لـتـوـصـلـ إـلـىـ الـحـقـيـقـةـ الـكـامـنـةـ فـيـ الـأـشـكـالـ — إـلـىـ النـارـ الـتـيـ هـيـ دـمـ الـرـوـحـ الـكـانـيـ فـيـ كـلـ شـيـءـ . وـاـنـ السـبـيلـ الـأـوـحـدـ إـلـىـ « تـقـدـمـ » هـوـ بـالـرجـعـ إـلـىـ الـوـرـاءـ — كـلـ إـلـ هـلـيـزـيـوـنـيـهـ

امانة الله التي يحيىها الفينكس بين التحديد والتعدد، والتي تختلف باختلاف الروايات بين حسين وحسناً وحسناً وغائبين والنفوار بهما فهو احدى وستين حتى وسبعين ألف سنة، فالمتفق عليه أنها زمن الادوار وتقلبات فلكية، فلتدركها لعلماء اهلية، غير أن فيها معانٍ لا علاقة لها بدورات الفلك. فكأنّي بالفينكس الذي يأمر مثل هذه الاجيال الطويلة بقوله إن اعمار الكائنات موقوفة على جمال حياتها الباطنية والتنافر مع ذاتها ومع ما حولها من كائنات سواها، فهي تطول بطول تلك الالفة وقصرها، مكتنزة في الفينكس الذي لا يخطو على مخفر من أجل طعامه، ولا يقاتل مخلوقاً من أجل رفيقة أو عدوية، يعيش في الفرة مع كل مخلوق، ولا نه لا ينتهي شيئاً راه لا يخاف شيئاً بل يحبها في سلام مع كل شيء، ومن ثم فإنّا لا نعرف مثلاً كمثال الفينكس بين ذلك أن تقواة المجد - كقاوة القلب - قوة لا تظهر، وهذا الطائر لا يغدو جسده بنات الأرض أو بع gioانها، بل بعطرها، لذلك يعراض يسر قرونها طويلة، إلا أن هذا النداء، عن كل ما فيه من طهارة، معرض للانحلال، ولذلك يعرض جسد الفينكس الذي يتغذى به للانحلال حتى بعد قرون، فالنظام الأعلى قد حتم على كل ما يولد من مصدر قابل للتغير أن يكرّر عبداً للتغير، وعلى كل ما يتغذى بالمادة أن يغدو بدوره المادة، وكل ما يأخذ أن يعطي بقدر ما يأخذ، وكل ما ينتهي شيئاً خارجاً عن ذاته أن يكون محظوظاً لشهوات الأشياء الخارجة عن ذاته.

هناك صفة تفرد بها الفينكس عن كل الطيور التي ابتدعها خيال الإنسان، فهو أبداً وحيد ولا ذيق له من جنسه، كأنه ذكر واثني معاً، وكأنه يعلن بذلك مع الناصري أن في الوجود ارجاء «لا يتزوجون فيها ولا يزوجون»، وإن الذكر والاثني عنصران مختلفان في دورة محددة من دورات الحياة، وإن الآتین يتزوجان في عوالم غير ملتنا هذا، ولذلك، أن انت انت من تشك ميلان التعمق في بواطن الحياة، أن تقرأ في الفينكس معانٍ غير التي قرأت وأجل مما قرأت، لأنك قد تكون من لا يؤمنون بغير ما يامون ويصررون، وحيثـ فالقرب أحق بامانتك من الفينكس، وما الفينكس عندك إلا خراقة مترفة واسطورة قديمة، ألا خذ غرابك واعطني الفينكس

ها أنا أطبق إجفاني فتنفس إمائي من خرايتها مدينة آتش العاتية الراهية - هليوبولس - بيت الشمس - وقد ظهر في وسطها هبكل راع بكل أبهته، وعلى مذبح الهبكل أبصر طائراً مغموراً بتوه الشّمس وهو يضيق بمناجيه الجبابين تصفيق جذل وغسلة، ها صدر القرمزى قد التب فتحولت كل ديشة فيه إلى لسان من فار ثم تحول الطائر كله إلى ذبيحة متوجهة نور معطر وعنان عرق بين الحياة والموت، وأذنها النار فأياصر فينكس جديداً ناهضاً من كومة الرماد، اهتف كالمسحور مع كamen الميكل: «يا راع ياها الكافى الجليل الذى يجدد ذاته في حبه، ايها الطفل الاهي، يا وريث الابدية، يا والد شهـ، يا امير الارجاء الفلى ومدير الاحياء العليا، يا الله الحياة، يا رب الجعد، كل نسمة تحيا بشعاعك».

الذكرى

ورقة جئت على خصر ذوى
فرع العصافير منها فازوى
عيث الطل بها ثم ارعى
نبذها الريح في عرض الفنا

شاخ حبي فضوى ثم انطوى
مال عنه القلب ، ملأاب جرى
ثمين الرشد به حتى ارتوى
مضنه النمل فولى شرمها